الفصل الخامس عشر

العباسيون

(١٣٢ — ١٥٨ هـ ٧٤٩ — ٧٧٥ م)

السفاح والمنصور

حكم السفاح — وفاته — استخلاف المنصور — صفاته — فتنة عبد الله بن علي — مقتل أبي مسلم — تشييد مدينة بغداد — محمد وإبراهيم ابنا الحسن — انهزامهما ومقتلهما — غزو أسبانيا — فشل الحملة — ثورة الخزر — إغارة جيش الروم — وفاة المنصور

لقد تغيرت بقيام الدولة العباسية معالم آسيا الغربية ، وتحول مركز الحكم من الشام إلى العراق ، وأضاع الشاميون النفوذ والسلطان اللذين كانا وقفاً عليهم إلى ذلك الحين ، وتبدل مجرى التقدم والرقي من الغرب إلى الشرق ، ولكن وحدة الدولة الخلافية بالرغم من كل ذلك تقوضت دعائمها إلى الأبد ، إذ أسرعت أسبانيا التي لم تكن تعترف بسلطان العباسيين منذ تأسيسها إلى تقديم طاعتها إلى « عبد الرحمن » الأموي الذي أسس دولة ضارعت الدولة العباسية قوة وبهاء . ومع أن أفريقيا الجرمانية كانت خاضعة لنفوذ العباسيين في أوائل عهدها إلا أنها أصبحت بمضي الزمن إمارة شبه مستقلة . ولا تعدو الواقع إذا قلنا إنهم عن تقلص حجم الإمبراطورية وانكماش أطرافها مزايا عديدة أعانت مؤيدي الدولة العباسية على تدعيم سلطانهم والنهوض بالشعب مادياً ومعنوياً .

١٣٢–١٥٨هـ وكان تسعة الخلفاء الأولون ، عدا خليفة واحد ، مشهورين بالحنكة السياسية والكفاية الإدارية والتفاني في توفير أسباب السعادة والرفاهية للشعب . كذلك كانوا جميعاً يجمعون إلى الصفات الحربية مؤهلات عقلية ممتازة . ومع

أن حكم بعض الخلفاء كان يتسم بميسم الشدة والاستبداد ، إلا أن ذلك كان من خصائص العصر فى جميع أنحاء العالم ونتيجة من نتائج السياسة المرسومة للدولة . ويقول مؤرخ فرنسى مشهور : « إن حكم العباسيين الأوائل كان أعظم عهود العرب شأناً وأهمها قدراً فى الشرق ، حيث كان عصر الغزو قد عفا أثره وبدأت أشعة المدنية تنبثق فى أجواء الإمبراطورية الإسلامية » .

أبو العباس عبد الله السفاح ١٣٢–١٣٦هـ ٧٤٩–٧٥٤م

أشرنا فيما سبق كيف بويع « أبو العباس » بالخلافة وكيف لقب بالسفاح لتنكيله بأعدائه وبطشه بكل من اشتبه فى ولائه ، وخاصة أن حياة الإنسان لم تكن لها فى ذلك العصر أية قيمة تذكر سواء فى الغرب أو فى الشرق . كذلك لم يكن للدين سلطان كبير على كبح جماح النزوات النفسية . ومع كل ما يقال عن قسوة « السفاح » فقد كان حاكماً كريم الخلق ملماً بدقائق منصبه ، بعيداً عن الانغماس فى الملذات ، ولم يكن له غير زوج واحدة اسمها « أم سلمى » ملكت عليه لبه فأصبح نفوذها عليه لا يقاوم ، وعلى هذا لم يتزوج من غيرها بالرغم من عادة التسرى وتعدد الزوجات التى كانت متفشية بكثرة فى تلك الأثناء ، ويقال إنها (أى زوجته) بالرغم من فتنتها ونفوذها عليه كانت تعجز بعض الأحيان عن تهدئة ثورته النفسيه وسخطه البالغ حد الإفراط على الأمويين .

الفتن فى الشام والعراق

ولا ريب أن تلك المعاملة السيئة التى عومل بها الأمويون أثارت عطف الناس عليهم وخرج أعوانهم على « السفاح » فى دمشق وحمص وقنسرين وفلسطين والعراق . وقد جرت العادة عند إضرام نار الثورة أن يحلق الرجال لحاهم ويعلنوا عصيانهم ، بيد أن العباسيين راعوا فى قمع تلك الفتنة طرقاً سياسية لم تكن معروفة من قبل ، فألقى الثوار سلاحهم بعد أن نالوا شروطاً حسنة .

يزيد بن هبيرة

وفى تلك الأثناء كان « يزيد بن هبيرة » أمير العراق من قبل الحكومة الأموية لا يزال قابضاً على « واسط » ، غير أن « حسناً بن قحطبة » وأبا جعفر أخا السفاح وولى عهده ضيقا عليه الحصار طيلة أحد عشر شهراً استعملا فى خلالها

أروع ضروب السفك والتنكيل ، بحيث كانا يرسلان السفن الملتهبة فى النهر لكى يضرما النار فى المدينة . وتقول لنا الرواية : إن يزيداً بن هبيرة عند ما أيقن أن الدولة الأموية قد تقوضت دعائمها وتداعت أركانها كتب إلى « عبد الله بن الحسن » أحد أحفاد الإمام على يرغبه فى الدعوة لنفسه ويحرضه على جمع خصوم العباسيين حوله . غير أن رسوله لم يعد إليه فى الوقت المضروب ، ولما يئس من المقاومة ولا سيما أن اليمانيين فى واسط كانوا قد انحازوا إلى السفاح ، عرض طاعته فى الحال على أبى جعفر مشترطاً الأمان لنفسه وأتباعه وأمواله . ومما يجب أن نشير إليه بهذا الصدد أن أبا جعفر كان معتزماً الوفاء له بالعهد ، غير أن السفاح كان خاضعاً لنفوذ أبى مسلم الذى كان يوجس خيفة من ابن هبيرة نظراً لما كان يتمتع به من كثرة الأتباع وواسع النفوذ بين عشيرته ، ولهذا نصح للسفاح أن يوعز بقتله ، فكتب هذا إلى أخيه يحرضه على تنفيذ الطلب ، بيد أن أباجعفر أبى ذلك فى مبدأ الأمر ، ولكنه لم يلبث إزاء إلحاح أخيه وتشدد أبى مسلم أن خضع لهما وأرسل من فتك به وبأكبر أبنائه وبعض أصحابه ، وبهذا اشتد بأس السفاح وأصبح سيد آسيا ومصر دون منازع ، كما قدمت إليه أفريقيا الغربية طاعتها . وتقول لنا الرواية العربية إن الخليفة راعى فى توزيع مناصب الدولة ألا يعين فيها إلا أفراد أسرته وأولئك الذين امتازوا بخدماتهم الجليلة للقضية العباسية ؛ فاستعمل أبا جعفر على العراق وأرمنيا وأذربيجان ، وولى عمه « داوود بن على » الحجاز واليمن واليمامة ، كما ولى « عبد الله بن على » سوريا ، وسليمان بن على البصرة وملحقاتها ، كذلك أسند إلى أبى مسلم ولاية خراسان ، وإلى « أبى عون » مصر ، وعين « خالداً بن برمك » وزيراً لبيت المال ، واستوزر « أبا سلمة » صاحب الدعوة العباسية . وقد أثار النفوذ الذى كان يتمتع به « أبو سلمة » على الخليفة حسد أبى مسلم الخراسانى الذى دبر فى الحال مكيدة لاغتياله ، وفى ذات

ليلة بينما كان عائداً من قصر السفاح هجمت عليه جماعة من رجال أبي مسلم وفتكت به ثم عزوا قتله إلى الخوارج .

غزو الجيش البيزنطي

وبرغم الإجراءات التي اتخذها الخليفة الجديد لبسط سلطانه لم تتوطد دعائم الإمبراطورية وتتسق شؤونها في ذلك الحين ، الأمر الذي شجع الجيوش البيزنطية على الهجوم على الحدود الإسلامية ، وراحت تتوغل في الأصقاع الشمالية وهي تمعن في السكان الآمنين قتلا وسلباً ، وفي المدن تخريباً وتدميراً .

وفاة السفاح ١٣٦هـ ٧٥٤م

وفي سنة ١٣٦ هـ توفي « السفاح » في الأنبار[1] ، دون أن يعقب غير ابن اسمه « أحمد » وبنت اسمها « ريطة » تزوجت فيما بعد من ابن عمها « محمد المهدي » . وكان السفاح قبل وفاته قد أسند ولاية العهد إلى أخيه أبي جعفر ثم لابن أخيه « عيسى » بالتعاقب . وتحدثنا الرواية أن « أبا جعفر » كان وقتئذ يقوم بفريضة الحج في مكة ، فأخذ له عمه « عيسى بن علي » البيعة طبقاً للوصية .

خلافة أبي جعفر المنصور ١٣٦هـ ٧٥٤م

ومع أن السفاح كان أول خلفاء البيت العباسي إلا أن « أبا جعفر » يعد في الواقع المؤسس الحقيقي لتلك الدولة ومشيد مجدها ، كما يعزى إليه تمكن الأسرة العباسية من الحكم الذي زاولته طوال هذه القرون والنفوذ الذي تمتعت به حتى بعد أن فقدت سلطتها الزمنية . ولا مرية أنه هو الذي وضع أساس العقيدة القائلة بوجوب تقديس مقام الخلافة وإعلاء شأنها ، حتى أصبحت تلك السياسة بعد مدة وجيزة مصدر قوتها وعماد نفوذها ، وقد كان فوق ذلك ملماً بطبائع الناس فعمل طوال مدة حكمه على تقوية هذا المبدأ ، كما جعل الخلافة تتخذ لنفسها

---

(١) هي فيروز سابور بينها وبين بغداد عشر فراسخ على نهر الفرات . وقال ابن الأثير « بنيت الحيرة و نبار أيام بختنصر ، وفتحها خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر ، وكانت منزلا لأبي العباس السفاح ، انتقل إليها من الحيرة سنة ١٣٤ هـ ومنها كمال الدين الأنباري ، من أئمة الأدب واللغة والتراجم » .

ولم يعرف قط المحل الذي دفن فيه السفاح . إذ كان العباسيون يخشون المعاملة التي عاملوا بها الأمويين ولهذا أخفوا قبورهم . وكان المستنصر أول خليفة عباسي شيد له مرقداً معروفاً .

بالتدريج مظهراً رائعاً وكياناً ثابتاً ساعد الخلفاء العباسيين فيما بعد على تدعيم سلطانهم ، وتأليف هيئة قوية من العلماء الذين يتفانون فى شد أزرهم ويخلصون لهم كل الإخلاص . وفى الواقع لم يكن حجر الزاوية لتلك السياسة البعيدة المدى غير الفكرة المقدسة الملازمة لمبدأ الإجماع . ويمكن القول أن باعتلاء المنصور عرش الخلافة بدأ عصر جديد فى تاريخ الأمة العربية تألق فى سمائه أنجم عدة من الخلفاء ، الذين أصبحت أسماؤهم علماً من أعلام التاريخ فى آسيا ؛ ولامشاحة أن أخلاف « العباس » بذلوا قصارى جهودهم فى إصلاح حالة الشعب وكسب مودته لما قاموا به من المشاريع العمرانية ، كتشييد المدن وتعبيد الطرق وشق الجداول والأنهار ، وحفر الترع والآبار ، وبناء المؤسسات العلمية ودور الإحسان وتكريم الأدباء والعلماء ، وتشجيع التجارة والحرف على أنواعها والإقلاع عن أعمال الغزو . ويقول لنا المؤرخ المشهور سويلو : « إن الخلفاء العباسيين بالكف عن الغزو سموا على مستوى عصرهم ، إذ بدأوا يدركون مزايا المدنية وفوائد الحضارة » . والحق يقال إن خلفاء بغداد تذرعوا بجميع الوسائل التى من شأنها أن تعمل على ترقية الشعب من جميع النواحى وتنظيم الإدارة ونشر العلم وربط جميع أنحاء الإمبراطورية برباط التجارة الوثيق .

أخلاق أبى جعفر

كانت أخلاق « أبى جعفر » مزيجاً غريباً من الخير والشر ، فهو كسياسى وإدارى لا يشق له غبار ، فضلا عن أنه لم يكن ليقل عن أشهر ملوك ذلك العصر فى بعد النظر والاهتمام برفاهية الشعب ؛ وقد كان براً رحيماً بأولاده ، ولكنه كان من الجهة الأخرى غادراً خداعاً ، لا يتردد البتة فى سفك الدماء ، وتعزى قسوته إلى حقده البالغ حد الإفراط ، فى حين كان خلفه لا يفتك بأحد إلا بعد كثير من التروى والإمعان . وعلى الجملة كان أبو جعفر سادراً فى بطشه ، مستهتراً فى فتكه ، وتعتبر معاملته لأولاد « على » صفحة من أسوأ صفحات التاريخ العباسى . ويقول السيوطى : « كان المنصور أول من أحدث ثغرة

الخلاف بين العباسيين والعلويين بعد أن كانا كتلة واحدة » .

ثورة عبد الله ابن على

وعند ما توفى السفاح أسرع « المنصور » إلى الكوفة ، ويقال إنه لم يكد يتبوأ كرسى الخلافة حتى شق عمه « عبد الله بن على » عامل الشام عصا الطاعة وادعى بالبيعة لنفسه ، فأنفذ إليه المنصور جيشاً كبيراً على رأسه أبو مسلم الخراسانى ، ودارت بين الفريقين بالقرب من نصيبين موقعة طاحنة أسفرت عن هزيمة عبد الله وفراره مع أهله إلى أخيه سليمان بن على أمير البصرة ، الذى آواهم عنده حتى عزل من منصبه ، وعندئذ وقعوا فى قبضة الخليفة الذى أمر بحبسهم فى قصر بالقرب من الهاشمية [1] ؛ بيد أن بطل موقعة « الزاب » كان مع ذلك يعد عنصراً خطراً على العرش ، فلم يسمح له بالبقاء على مقربة من العاصمة ، ولهذا شيدت لهم دار جعل أساسها على الملح وحبسوا فيها ، فلما هطلت الأمطار بغزارة تقوضت دعائمها ، وتهدمت على نزلائها التعساء فقتلوا لتوهم ، وهو مصير كانوا يستحقونه نظراً للقسوة البالغة التى عاملوا بها الأمويين ، فشربوا من الكأس التى سقوا بها الناس دهاقا .

و بعد موقعة نصيبين رغب أبو مسلم فى العودة إلى مقر حكمه فى « خراسان » حيث كان يستطيع بنفوذه أن يهدد الخليفة ويؤلب عليه الناس نظراً لكثرة أتباعه الذين كانوا يؤمنون بنبوته ، وعلى هذا كان يتمكن بكلمة واحدة أن يحطم الدولة العباسية و يسقطها من شاهق عزها . ويقال إنه لما وفد عليه رسول الخليفة ليحصى الغنائم ثار ثائره ، وتفوه بكلمات لا يليق بمثله أن يتفوه بها ، فلم يسع الخليفة إزاء هذا التصرف إلا أن يعتصم بالصبر ، و يعقد النية على التخلص منه ؛ ولأجل أن يتمكن من تنفيذ خطته راح يتذرع بكل الوسائل ليحول دون سفره إلى مقر حكمه ومعقل أصحابه الأمناء ، وكتب إليه كتابا يوليه فيه الشام وملحقاتها ؛ ولكن « أبا مسلم » كان من الفطنة والدهاء بحيث لم يؤخذ بتلك

(١) مدينة شيدها السفاح على مقربة الكوفة .

الحيلة ، فمضى صوب خراسان على رأس الجيش الذى سحق به « عبد الله بن على » ، وما أن أدرك المنصور أن لا طاقة له بمعارضته حتى التجأ إلى سلاحه المعهود ؛ ولا ننسى بهذا الصدد أن الإنسان مهما أوتى من المهارة فى استخدام أنواع الحيل ، ومهما اشتهر بتدبيرها ونصب شباكها ، فمن اليسير جدا أن يقع هو نفسه فريسة لمثل تلك الأحابيل التى افتنّ فى نصبها للآخرين . وهكذا راح المنصور يفرط له فى قطع العهود ، ويغريه بشتى الوعود لكى يحمله على الشخوص إلى العاصمة فى طريقه إلى خراسان ، كذلك كان قد أمر رجال الحاشية وموظفى البلاط أن يستقبلوه استقبالا رائعاً ، ويعاملوه بكل حفاوة واحترام ، جديرين بالملوك والأمراء .

مقتل أبى مسلم الخراسانى ١٣٧ هجرية

وفى ذات يوم سيئ الطالع بينما كان « أبو مسلم » فى حضرة الخليفة خرج عليه جماعة وفتكوا به بعد أن نزعوا السلاح من أتباعه . وكان « المنصور » يرى أن سلطانه طالما كان « أبو مسلم » على قيد الحياة مهدداً بالزوال ، ولكنه شعر بعد مقتل ذلك الخصم العنيد أنه أصبح الحاكم الفعلى للبلاد ، فوجه التفاته إلى اختيار موقع يشيد عليه حاضرة الخلافة . وبديهى أنه لم يكن لينقص دمشق روعة الجاذبية التى تجذب إليها العباسيين فحسب ، بل كانت عرضة أيضاً لهجمات الأعداء . أما مدينتا البصرة والكوفة فكان أهلهما معروفين بتقلب الأهواء وعدم الاستقرار ، ولهذا انصرف عن اتخاذ إحداهما مركزاً للحكم ؛ وبعد أن تحرى بنفسه كثيراً من الأماكن اختار الموقع الذى لا تزال بغداد تحتله إلى اليوم لحسن ملاءمته ، ويقال إنها كانت مضيفاً لكسرى أنوشروان ملك الفرس ؛ ومع أنها كانت قد فقدت شهرتها بزوال دولة ملوكها القدماء ، إلا أن جمال موقعها استرعى انتباه المنصور فبنى فوق أطلالها مدينة[1] الخلفاء العباسيين .

---

(١) قال الخطيب البغدادى : « لم يكن لبغداد فى الدنيا نظير فى جلالة قدرها ، وفخامة أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها ، وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها ، وسعة =

بغداد

اختطت بغداد ، أو مدينة المنصور ، على ضفة دجلة الغربية ؛ ولكن ولى العهد أنشأ مدينة أخرى على ضفة النهر الشرقية وسماها باسمه « المهدية » وأضحت تضارع المنصورية المشهورة بهاء وفخامة .

كانت « بغداد » فى زمن عظمتها وازدهارها — قبل إغارة جنكيزخان الذى أعمل فيها معاول التخريب والتدمير — أعظم قاعدة ملكية عرفها التاريخ فاختطت على شكل دائرة يحيط بها سور فخم ، وابتنى فى وسطها قصر منيف الذرى ومسجد جامع ، كما شيدت خلف ساحة الاستعراض دور كبار الضباط وموظفى الدولة ، وفتحت شوارع رحبة بعرض لا يقل عن الأربعين ذراعاً . ولما كانت الأسواق تعتبر وقتئذ مثابة للأشرار والمشبوهين ، فقد شيدت خارجها للمحافظة على الأمن العام ، ولكن الحكومة مع ذلك سمحت بفتح بعض الحوانيت فى المنعطفات تحت مراقبة الشرطة ؛ كما شيدت الثكنات على الضفة الشرقية من النهر وقسمتها إلى ثلاثة أقسام : للجنود المضرية ، واليمانية ، والخراسانية . وأنشأت فى كل جانب من جوانب المدينة عدة أبواب تعلوها الأبراج الشامخة التى يقوم على حراستها جنود أشداء آناء الليل وأطراف النهار ، على أن بناء المدينة لم يتم إلا فى سنة ١٥٠ هـ . ويقول المؤرخون : إنه وقعت فى تلك الأثناء عدة حوادث انتهت جميعها لصالح الخليفة ، إذ أن مقتل أبى مسلم أثار سخط أتباعه[1] فى خراسان فشقوا عصا الطاعة ، ولكنهم منوا بشر هزيمة ، كذلك

= أطوارها ، وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها ومساجدها وحماماتها ، وخاناتها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وبرد ظلالها وأفيائها ، اعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ... وأكثر ما كانت عمارة وأهلا فى أيام الرشيد ، إذ الدنيا قارة المضاجع ، دارة المراضع ، خصيبة المواقع ، موردة المشارع » .
(المعرب)

(١) لما عمى قتل أبى مسلم إلى خراسان وغيرها من الجبال ، اضطرمت الحرمية وهى الطائفة التى تدعى بالمسلمية القائلة بأبى مسلم وإمامته وقد تنازعوا فى ذلك بعد وفاته ، فمنهم من رأى أنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيهم عدلا ورحمة ، وثمة فرقة أخرى قطعت بموته وقالت بإمامة ابنته فاطمة وهؤلاء يدعون الفاطمية .

(١٣٢ — ١٥٨ هـ)

أضرم الروندية الذين كانوا يعتقدون بحلول الإله فى الخلفاء العباسيين نار الثورة فى الهاشمية ، وكادوا يقتلون الخليفة نفسه لولا أنه قمع حركتهم بشدة وحزم جديرين بالإعجاب ، وراح يطهر المدينة من تلك العناصر الغارقة فى دياجير الجهالة والخرافات ؛ ثم تفرغ إلى محاربة الجيش البيزنطى ، وبعد معركة دموية هائلة دارت رحاها بين الفريقين ، أرغم إمبراطور القسطنطينية على عقد معاهدة صلح لمدة سبع سنين ؛ وعندئذ وجه نشاطه إلى إصلاح ما أفسده المغيرون ، وقام بتعمير المدن الخربة وترميم الحصون المتهدمة ، وزار بنفسه جميع تلك المواقع ، وأرسل « بالحسن بن قحطبة » على رأس جيش كبير إلى كبيدوكيا ، وأمر بإعادة تشييد ملطية[1] والمصيصة و بعض المدن الأخرى ، كما أنشأ فيها الحاميات وابتنى الحصون فى كلوديا و بعض المراكز العسكرية الأخرى صداً لهجمات الجيوش البيزنطية .

إغارة الجيش البيزنطى

(٧٤٩ — ٧٧٥ م)

ضم طبرستان إلى الامبراطورية العربية فى سنة ١٤٨ هـ

كان أهل طبرستان الجبلية الواقعة على الجنوب الغربى من بحر قزوين لا يزالون باقين على دينهم القديم ، وكان يحكمهم رؤساء من بنى جلدتهم رغم كونهم خاضعين للإمبراطورية العربية ، ولكنهم ثاروا فجأة على العرب المستوطنين وفتكوا بعدد غير قليل منهم ، وفى الحال أنفذ الخليفة إليهم جيشاً كثيفاً هزمهم ونكل برؤسائهم . وألحق طبرستان وكيلان نهائيا بالدولة العباسية . ولم يكد يتم للخليفة هذا النصر حتى اجتاح أهل الديلم[2] حدود الدولة العربية وقد كان هؤلاء يدينون بالمانوية القديمة ويتمتعون بشبه استقلال ذاتى ، فنكلت بهم الجيوش الإسلامية شر تنكيل وأراحتهم إلى بلادهم ، كما شيدت مراكز عسكرية على الحدود منعاً لوقوع مثل هذا الغزو فى المستقبل . وفى سنة ١٤٣ هـ أجرى الخليفة حركة تنقلات واسعة النطاق بين العمال والأمراء ، كما أوجد نظاماً جديداً

---

(١) هى مدينة من بلاد الثغور الرومية ، ومنها أبو فرج الملطى المؤرخ المحقق والملقب بابن العبرى . (المعرب)

(٢) هؤلاء يسكنون المفاوز الجبلية فى شمالى كيلان غربى بحر قزوين .

خاصاً باستخدام المكاتبين الذين كانوا يتلقفون الأخبار ويقدمونها إلى الحكومة المركزية ، وأسس دائرة خاصة للاستخبارات لاتقل شأناً عن مثيلاتها فى الحكومات العصرية ، ومع أن تلك الإدارة كانت تساعد الحكام على فرض رقابة شديدة على حركات المشبوهين واكتشاف الجمعيات السرية التى تعمل فى الخفاء لقلب نظام الحكم إلا أنها كانت من الجهة الأخرى تنشر الرعب فى قلوب السكان .

(١٤٤ هـ / ٧٦١ م) قد وصلنا الآن إلى صفحة من أروع صفحات هذا الخليفة المشهور فتبين لنا قسوة قلبه وتجرد طبعه من الرحمة والحنان ؛ ولكى نفهم الحادثات المتعاقبة نرى من الضرورى أن نلقى نظرة عجلى على المكانة السامية التى كان العلويون يحتلونها فى قلوب الناس فى تلك الآونة .

كان « آل الحسن » يحيون حياة العزلة والانقطاع فلم يساهموا إلى ذلك الحين فى الأمور السياسية ، كما أنهم برغم ما لاقوه من سوء المعاملة لم يحاولوا قط الخروج على السلطة الحاكمة ؛ كذلك عاش أحفاد على الثانى ابن الحسين حياة أكثر عزلة وأشد انقطاعاً ، قاصرين همهم على حلبة الأدب والفلسفة مترفعين عن الشغب ديدن بنى عمومتهم . والمعروف أن هشاماً والوليد الثانى كانا قد أنزلا بيزيد ابنه صنوف العذاب . وظلا يهملانه حتى يثقل غضا الطاعة ويسقط صرعاً فى ميدان القتال ، غير أن أحفاد الحسن والحسين ظلوا بملكين بالمدينة يعيشون من دخلهم الضئيل علاوة على ما كانوا يصيبونه من التجارة وأجور التدريس ، ولكنهم برغم رقة حالهم وخصاصتهم كانوا يحتلون مكانة سامية فى الهيئة الاجتماعية ، وكان يعيش بينهم فى المدينة أحفاد الخلفاء الراشدين الثلاثة وأحفاد الزبير وكبار الصحابة الأولين . وكان الجميع يكنون فى أفئدتهم لأحفاد « على » أخلص الحب وأصدق الوفاء ؛ غير أن ذلك النفوذ الذى كانوا يتمتعون به وذلك الاحترام الذى كانوا يلاقونه عند مواطنيهم أثارا شكوك « المنصور » وارتيابه فى ولائهم لعرش الخلافة ، كما زاد فى مخاوفه انهيار صرح الدولة الأموية وسقوطها

السريع من شاهق عزها ، نخشى أن يؤدى به التساهل وعدم الاكتراث إلى نفس المصير الذى آلت إليه الدولة الأموية . وهذا نراه يلتجئ إلى التجسس لكى يقف بنفسه على مايحاك ضده من المؤامرات ، فيوفد جواسيسه إلى العلويين لكى يختلطوا بهم و يشجعوهم على الإفضاء إليهم بمكنون صدورهم ؛ ولكننا مع ذلك نستطيع أن نؤكد أن تلك الشكوك لم تكن وحدها الباعث على اضطهادهم ، إذ ثمة حادثة أخرى وقعت قبيل تأسيس الدولة العباسية كان لها أبلغ الأثر فى تلك المعاملة السيئة التى عاملهم بها ، وهى أن آل البيت لما رأوا أن الخلافة الأموية تتردى سراعاً فى دركات التدهور والانحلال عقدوا اجتماعاً خطيراً فى المدينة للبحث فى مصير الإمبراطورية العربية ، وكان من جملة الحاضرين « المنصور »[1] نفسه ومعظم رجال البيت الهاشمى ، وقد أجمع هؤلاء جميعاً على مبايعة « محمد »[2] حفيد الحسن برغم وجود أبيه على قيد الحياة ، ولقب بذى النفس الزكية ، وقد سمى كذلك لسمو فكره وزهده ونسكه ، ويعزى إجماعهم على مبايعته إلى كفايته الممتازة ومقدرته المنقطعة النظير . ولا تنسى أن « المنصور » كان قد عاهد « محمداً » فى ذلك الاجتماع على الطاعة والولاء .

ولكن عند ما آل الحكم إلى العباسيين واعتلى المنصور كرسى الخلافة عاودته ذكرى ذلك الاجتماع الرهيب الذى أخذ ينغص عليه أسعد أيام حياته ، كذلك كان الجواسيس قد سمموا أفكاره بالوشايات والافتراءات التى كانوا يلصقونها كذبا و بهتاناً بأبناء الحسن ، فحاول أن يلقى القبض على محمد وأخيه إبراهيم ، ولكنهما لاذا بالفرار ، فلم يلبث طويلا حتى قبض على كبار أفراد الأسرة ومنهم عبد الله ، ورئيس أسرة الخليفة عثمان الملقب بمحمد العثمانى[3]

---

(١) لم يكن الإمام جعفر الصادق من جملة من حضروا هذا الاجتماع .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن الأول بن على .

(٣) هو محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان .

وأرسلهم جميعاً مصفدين بالأغلال إلى الكوفة حيث اعتقلهم فى قصر ابن هبيرة . ولما كان محمد العثمانى محبوبا ومحترماً من جميع أهل الشام فقد اعتبره الخليفة خطراً على العرش فأمر بجلده وقتله . أما الآخرون فقد عوملوا بكل قسوة وصرامة حتى صرحوا أنهم كانوا فى عهد الأمويين أحسن حالا وأرغد عيشا ، وقد راح الخليفة يبث العيون والأرصاد لكى يقف على مخبأ محمد و إبراهيم ، واستخدم الأعراب للبحث عنهما فى كل مكان حتى فى القرى الحقيرة والواحات النائية ، كذلك كان يعاقب كل من يشتبه بأنه يساعدهما بالجلد أو الحبس ؛ ولما يئس « محمد » من الخلاص أرسل أخاه إبراهيم إلى الأهواز والبصرة لكى يدعو الناس إلى مبايعته بعد أن اتفق الاثنان على الهجوم على البصرة والمدينة فى يوم واحد ، ولو أنهما نفذا مشروعهما فى وقت واحد لتمكنا على الأرجح من تقويض دعائم الحكم العباسى .

ولكن « محمداً » بظهوره قبيل تمام عدة أخيه مكن « المنصور » من توجيه الحملات العسكرية عليهما بالتتابع . وتقول لنا الرواية إن « محمداً » كاد فى بادئ الأمر يكتسح أمامه جيش الخليفة ، كما قبض على عامل المدينة وزجه فى السجن ، ونشر سلطانه فى الحجاز واليمن خلال بضعة أيام ، و بايعه جميع أهل تلك الأمصار ؛ وأفتى الإمام أبو حنيفة والإمام مالك مؤسسا المذهبين الفقهين المشهورين بصحة دعوته للخلافة . ولما ألفى المنصور أن الحركة أشد خطراً مما كان يتوقع التجأ إلى خديعته المعروفة ، و بعث بكتاب إلى « ذى النفس الزكية » يعده بالأمان على نفسه وولده و إخوته ومن بايعه وتابعه ، و بإنزاله حيث شاء من البلاد ومنحه مبلغاً كبيراً من المال ؛ فكتب إليه « محمد » بعده أن دخل هو فى بيعته أن يؤمنه و يصفح عنه ثم ختم رسالته بقوله : « أى الأمانات عرضت على ، أأمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله بن على ؟ أم أمان أبى مسلم الخراسانى ؟ » فكتب إليه أبو جعفر كتاباً استعمل فيه كثيراً من المهارة مبيناً له

٧٤٩ـ٧٧٥م

المبادئ التى تأسست عليها الدولة العباسية متجاهلا بالطبع أنه بايعه فى المدينة ثم أخذ يشرح له أن النبى لم يعقب ذكراً ، وأن قرابة العلويين ليست إلا من البنت التى لا تحوز الميراث ، ولا تورث الإمامة ، وأن رسول الله (ص) توفى وليس من عمومته أحد حى غير « العباس » فكان هو وارثه دون غيره » . وما كاد يبعث بهذا الكتاب حتى أرسل إليه عيسى ابن أخيه على رأس جيش كبير لسحق حركته . وقبل نشوب المعركة خير محمد أتباعه بين تركه و بين الاشتراك معه فى القتال ؛ فخاف كثير منهم وتفرقوا عدا ٣٠٠ رجل منهم أصروا على البقاء معه لمواجهة جيش المنصور الجرار . فتقابلت الفئتان وأخذتا تتقاتلان حتى سقط محمد صريعا ، وفنيت جميع جنوده فدفنوا فى مقبرة الشهداء بالقرب من المدينة .

مقتل محمد ١٥ رمضان ١٤٥هـ ٧٦٢م

أما إجراءات إبراهيم فى البصرة فكانت قد تعطلت ، نظراً لنشوب ثورة أخيه قبيل الوقت المضروب . ولكنه برغم ذلك استطاع أن يحشد قوة كبيرة حارب بها جيش المنصور وانتصر عليه فى عدة معارك انتصاراً جعل موقف العباسيين محفوفاً بالخطر ، فصمم الخليفة على الفرار من الكوفة لولا أنه أوفد فى آخر لحظة عيسى على رأس جيش آخر لمقاتلة إبراهيم ، فسار حتى إذا وصل إلى موقع على ضفة الفرات اقتتل الطرفان قتالا شديداً أسفر عن انكسار جيش الخليفة شر انكسار ؛ ولكن إبراهيم بدلا من أن يتعقبهم و يمعن فى فلولهم قتلا أمر بتوقيف ملاحقتهم ، و بهذا خسر قضيته فى ساعة النصر . أما العباسيون فقد انتهزوا فى الحال تلك الفرصة و كروا راجعين إلى مواقعهم حيث انضاف إليهم كثير من رجالهم الذين كانوا قد سقطوا على الأرض ، وأعقب هذا الحشد معركة دموية رائعة أصيب فيها إبراهيم بسهم جندله قتيلا ، فتمزق أتباعه شر ممزق[1] .

١٣٢ـ١٥٨هـ

مقتل إبراهيم فى ٢٤ ذوالقعده (١٤٥هـ)

وما أن حاز « المنصور » هذا النصر حتى شهر سيف الإرهاب والتنكيل على أعدائه ، فأمر بقتل كثير من أشراف البصرة الذين كانوا قد آزروا دعوة العلويين

(١) وصف ابن خلدون هذا الحادث بتوسع (ص ٤ ج ٤) .

وهدم بيوتهم وخرب بساتينهم كما صادر أملاك أبناء الحسن والحسين ؛ وألغى الامتيازات التى كان أهل المدينة يتمتعون بها ؛ وأوقف الإعانات التى كانت ترد لهم من مصر ، وهدد الإمام « جعفرا الصادق » بالقتل لمطالبته برد أملاكه ، كما حبس الإمام أبا حنيفة ؛ وجلد الإمام مالك من غير ما شفقة ولا رحمة ؛ وأمر بقتل بعض المسجونين فى قصر ابن هبيرة ، بينما تسمم البعض الآخر بسبب تعفن غرف السجن . ولما قتل الخليفة « إبراهيم » أرسل رأسه إلى أبيه الشيخ فى سجنه ليزيده لوعة وحرقة . ويقال إن الأب المتفجع التفت إلى الرسول قائلا : « قل لصاحبك : قد مضى من يومنا أيام والملتقى القيامة » . ويقول الرسول : ما رأيت المنصور قط أشد انكساراً منه فى الوقت الذى بلغته فيه هذه الرسالة .

وفى تلك الأثناء عظم نفوذ « المنصور » وانتشر سلطانه فى جميع أنحاء آسيا الغربية وأفريقية ؛ ومع أن الأندلس لم تكن تعترف بحكمه الزمنى ، إلا أن الخطبة كانت تقرأ هناك باسمه بصفة كونه حامى حمى الحرمين . وفى سنة ١٤٦ هـ ولى الخليفة ابنه جعفراً مدينة الموصل وعين له مساعداً اسمه « حرب بن عبدالله » وهو جندى باسل ، والمأثور عنه أنه شيد قصراً[1] فخما بضاحية المدينة أعده لسكن جعفر الذى رزق فيه بابنته « زبيدة »[2] .

١٤٦ هـ
٧٤٩ـ ٧٧٥م

وفى ذلك الحين حاول عامل أفريقيا[3] غزو الأندلس ففشلت حملته فشلا ذريعاً ، وأنزل بها عبد الرحمن هزيمة شديدة ، ثم بعث برأس القائد العباسى إلى مكة حيث ألقيت سرا أمام الخليفة « المنصور » الذى اتفق وجوده فيها وقتئذ

الأندلس

(١) كان هذا القصر لا يزال قائماً عند ما وضع ابن الأثير كتابه (الكامل) المشهور ، ويقول فى هذا الصدد إنه كانت له ضيعة على مقربة من قصر حرب بن عبد الله أوقفها على الرباط للصوفيين ، وكان له منزل جميل فى تلك الضيعة كان يسكنه فى أثناء وضعه كتابه المشهور .

(٢) هى زوجة هرون الرشيد واسمها الحقيق أمة العزيز ، وقد سماها جدها المنصور زبيدة مصغر الزبدة .

(٣) ابن مغيث اليحصبى . (المعرب)

فارتاع وحمد الله الذى جعل بينه و بين صقر قريش بحراً واسعاً .

غارة الخزر

ولم يمض طويل وقت حتى شق أهل الخزر فى كورجيا عصا الطاعة فقمعت الحكومة حركتهم وأدبت زعماءهم ، كما اتخذت إجراءات شديدة لمنع وقوع مثل تلك الحوادث فى المستقبل ؛ وكاد الأكراد يخرجون على الحكومة لولا أن الخليفة عين وزيره خالداً بن برمك عاملا على الجزيرة ، فاستطاع بصلابته وحزمه أن يقمع الحركة وينشر الأمن فى تلك الأصقاع ؛ وما إن هدأت الأحوال واستقرت الأمور حتى فكر المنصور فى حمل « عيسى » ابن أخيه على التنازل عن ولاية العهد ، واستخدم لذلك ضروب الحيل حتى رضخ « عيسى » أخيراً وتنازل عن ولاية العهد ، وفى الحال أسندها الخليفة إلى ابنه ولقبه « بالمهدى » .

مبايعة محمد المهدى بولاية العهد ١٣٢ـ١٥٨هـ

وفاة الإمام جعفر الصادق ١٤٨هـ-٧٦٥م

وفى سنة ١٤٨ هـ توفى الإمام « جعفر الصادق » بالمدينة غير أن الحلقة العلمية ، لحسن الطالع ، لم تتوقف بوفاته ، إذ طفقت تزدهر برئاسة ابنه وخلفه « موسى » الملقب « بالكاظم » ، ومن ذلك الحين بدأ الانقسام بين الشيعة حول منصب الإمامة إذ كان الإمام « جعفر » قد أوصى لابنه الأكبر « إسمعيل » الذى توفى فى حياة أبيه ؛ فأوصى جعفر ثانية لابنه « موسى » ، غير أن بعض الشيعة رفضوا الاعتراف به وقالوا بإمامة « حبيب بن إسمعيل » ، وكان ذلك الخلاف بدء ظهور الطائفة الإسمعيلية التى أسست الدولة الفاطمية فى مصر .

موسى الكاظم

١٥١ هـ الثورة فى خراسان

وفى سنة ١٥١ هـ شق « ستادسيس » أحد زعماء خراسان المشهورين عصا الطاعة والولاء ، ولكن لم يمض سوى قليل حتى قمعت ثورته ، وأرسل مخفوراً مع أهله إلى بغداد حيث عوملوا معاملة مرضية .

أفريقيا

أصبحت أفريقيا وقتئذ مصدر قلق متواصل للخليفة ، إذ قتل عاملها المسمى « غلاب » التميمى فى الثورة التى أضرمها الخوارج فى تونس بعد أن قضى فى حكمها سنتين ، فخلفه « عمر بن حفص » ، وظل متربعاً فى دست الحكم قرابة ثلاث سنوات تمتعت البلاد خلالها بنعمة الطمأنينة والعدل ؛ بيدأن الخوارج

نتقضوا ثانية على الحكومة وحاصروا مدينة القيروان ، وأصاب أحدهم «عمر» بسهم قتله على الأثر ، فلم تلبث المدينة أن سقطت فى أيدى الخوارج . ولما انتهى هذا الخبر إلى مسامع الخليفة اشتد سخطه ، وأرسل فى الحال جيشاً آخر بقيادة عامل جديد اسمه « يزيد المهلبى »[1] وهو رجل ذو حنكة إدارية عظيمة وهمة لا تعرف الكلل ، فهزم الخوارج فى عدة معارك وقتل زعيمهم ، وتعقب فلولهم من محل إلى آخر حتى نشر الأمن فى ربوع البلاد ، وظل متربعاً فى دست الحكم خمسة عشر سنة حتى توفى سنة ١٧٠ هـ وخلفه ابنه داود . ٧٤٩ـ٧٧٥م

وفى سنة ١٥٥ هـ ابتنى « المنصور » مدينة « الرفيقة » ، كما شيد الأسوار وحفر الخنادق حول مدينتى الكوفة والبصرة ، وأمر باحصاء جميع السكان .

وفى تلك الأثناء أخل الإمبراطور الرومانى بشروط الصلح ، وزحف على الحدود الإسلامية ، ولكنه منى بهزيمة منكرة وضمت على أثرها معاهدة جديدة تعهد فيها الإمبراطور بدفع الجزية .

وفى سنة ١٥٦ هـ أجرى الخليفة حركة واسعة النطاق فى تعيين وتحويل العمال والأمراء ، وكاد يعين أحد أولاد الحسن[2] عاملا على المدينة ، لولا أن عاجلته المنية على أثر الجهود التى بذلها فى توطيد دعائم ملكه . وتقول لنا الرواية : « إنه عند ما أحس بدنو أجله أرسل فى طلب ولى العهد وأوصاه بالنصائح التالية :

« إياك وتأخير عمل اليوم إلى الغد ، وأنظر جيشك ورعيتك وأحسن إليهم ، ولا تجاوز ما أمر الله به فى محكم القرآن ، واحكم بالعدل ولا تشطط ، وخذ نفسك بالتيقظ ، وباشر الأمور بنفسك ، لا تضجر ولا تكسل ، وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم ، وتحسن إليهم وتقدمهم ، وتولى الناس أعقابهم ، فإن عزك عزهم ، ولا تبرم أمراً حتى تفكر فيه ، فإن فكر العاقل مرآته تريه حسنه وسيئه ١٣٢ـ١٥٨ هـ

---

(١) هو يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، وإنما لقب المهلبى نسبة إلى عمه المهلب .

(٢) زيد .

لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل ، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة » .

وفاة المنصور ٦ ذى الحجة ١٥٨ هـ تشرين الأول سنة ٧٧٥ م

وبعد أن ودع ابنه توديعاً مؤثراً ، شخص إلى مكة حيث كان ينوى قضاء بقية أيامه ، ولكنه توفى فى طريقه فى بئر ميمونة على بعد بضع ساعات من مكة ، فشيدوا له مائة قبر ودفنوه فى واحد منها خشية أن يعرف الناس قبره الحقيق .

وتبلغ مدة حكمه ٢٢ سنة ، وكان نحيف الجسم ، طويل القامة ، أبيض البشرة ، حسن الخلق ؛ ويقال إنه لم يأت عملا يشينه قط ، « وكان شغله فى صدر النهار الأمر والنهى ، والولايات والعزل ، وتدبير الخطط لصيانة الحدود وحماية الطرق ، وتحسين أحوال الرعية ، والنظر فى الخراج والنفقات ؛ فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره . فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب النفور والأطراف والآفاق ، وشاور سماره من ذلك فيما أرب ؛ فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره ، فإذا مضى الثلث الثانى قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلى بالناس ثم يجلس فى إيوانه »[1] ؛ وكان مقتصداً فى نفقاته ، دقيقاً فى حساباته ، حتى سمى بأبى الدوانق[2] .

٧٤٩ ـ ٧٧٥ م

كذلك كان هذا الخليفة الذائد عن حياضه ، الذاب عن كيان عرشه ، مثالا صالحا للرعية فى إطاعة القوانين والامتثال لحكم القضاة ؛ ويقال إن قاضى المدينة أرسل فى طلبه ذات مرة للتحقيق معه فى قضية رفعها عليه أحد أصحاب الجاه ، فحضر بنفسه مع حاجبه ووقف كفرد عاد أمام القاضى الذى لم يخفّ حتى لاستقباله ؛ وعند ما جاء قرار المحكمة ضده ، أثنى على نزاهته ، ووصله بكيس من النقود ؛ ويقال إنه ترك بيت المال عامراً يكفى لسد نفقات الدولة لمدة عشر سنوات ، كما صرح بذلك لابنه المهدى .

---

(١) ابن الأثير .

(٢) يساوى الدرهم ستة دوانق .